الأنساق البصرية في العمليّة التّعليميّة للغة العربية في المرحلة الإبتدائية.

Visual systems in the educational process of the Arabic language at the primary level

زهرة بللو*

جامعة وهران1، أحمد بن بلة، (الجزائر)، zohra.bellelou@gmail.com

أ/د عبد الحليم بن عيسى

جامعة وهران1، أحمد بن بلة، (الجزائر)، abdelhalim2001@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/11/23 تاريخ القبول: 2020/11/05 تاريخ النشر:2021/06/01

ملخص:

أضحى التّعلّم البصري المحور الرئيس في المناهج التّربويّة الحديثة، والدّعامة الأساسيّة في العملية التّعليميّة/ التّعلميّة في مادّة اللغة العربيّة، وذلك بمعرفة الدور الفعّال للأنساق البصرية وتحديد وظيفتها التّواصليّة في الميدان التّربويّ، وإدراك نجاعتها في تحقيق التّعلّم الناجع للمتعلّمين الصّغار، وتمكينهم من اكتساب المهارات اللغويّة الأربعة (الاستماع، والحديث، والقراءة، والكتابة)؛ إنّنا نُلفي الأنساق البصريّة التّعليميّة مُرتكزا معرفيا ضروريّا، لا يمكن للمعلّمين الاستغناء عنه في عصر الصّورة.

لا غرو إذن، إذا ما ركّزنا الدّراسة في هذه الورقة البحثيّة على الصّورة التّعليميّة المستعملة في تعليم اللغة العربية في المرحلة الابتدائيّة، واتخذناها أداة إجرائيّة ضروريّة في حالات التّعليم اللغوي.

كلمات مفتاحية: الأنساق البصرية، الدّور الفعّال، التعليميّة، اللّغة العربيّة.

Abstract:

Visual learning has become the main focus of modern educational curricula, and the mainstay of the educational / learning process in the Arabic language subject, by knowing the effective role of visual systems and determining their communicative function in the educational field, and realizing their effectiveness in achieving effective language learning for young learners and enabling the acquisition of the four skills. (Listening, speaking, reading and writing; we envelop the educational visual systems as a necessary cognitive anchor, which teachers cannot do without in the age of the image.

It is not surprising then, if we focus the study in this research paper on the educational image used in teaching the Arabic language at the elementary level, and we take it as a necessary procedural tool in cases of language education.

Key words: Visual patterns, Effective role, Educational, Arabic language.

* **المؤلف المرسل**: زهرة بللو، **الإيميل**: zohra.bellelou@gmail.com

1.مقدّمة:

ينهض تعليم اللّغة العربية في المرحلة الإبتدائية على أسس متينة، وينبني على آليات دينامية، ويقوى ويشتدّ في ظل أطر علمية، وتتراصّ أركانه بمنظومة قيمية، تُهذّب لغة المتعلّم وتقوّم سلوكاته، وتزيد في رفعة أخلاقه؛ ولا يتأتّى ذلك إلاّ إذا استعان المعلّم بوسائل تعليميّة شتّى تستثير حواس المتعلّم وتحفّزه على التّعلّم النّاجع، وتصقل مهاراته اللغويّة، وتُنمي قدراته المعرفيّة، ومن ثمّة فإنّ تعليميّة اللغة العربيّة تنضوي على أنماط من المتعلّمين، فالمتعلّم السمعي والمتعلّم اللمسي والمتعلّم البصري.

2. الوسائل الحسيّة في تعليم اللّغة العربية:

تُساعد الوسائل الحسّيّة المتعلّم على الفهم والاستيعاب والإدراك في الموقف التّعليمي، وتُعين على تقريب المعنى المراد إلى ذهن المتعلّم.

يقول الجاحظ(ت.255هـ): "وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم، وتُجلّيها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، الغائب شاهداً، والبعيد قريباً، وهي التي تلخص الملتبس، وتحلّ المنعقد، وتجعل المهمل مقيّداً، والمقيّد مطلقاً، والمجهول معروفاً، والوحشيّ مألوفاً، والعقل موسوماً، والموسوم معلوماً، وعلى قدر وضوح الدّلالة وصواب الإشارة، وحسن الإختصار، ودقّة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلّما كانت الدّلالة أوضح وأفصح، كانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع أنجع"[1]، ومنذ القرون الأولى للهجرة كان إهتمام علماء اللّغة بالمعنى وسُبل إيصاله إلى القارئ، أيّ المتعلّم، من أولى الأمور التي أولوها غاية فائقة، حتى جعلوها أسس الخطاب بكل أصنافه، وهذا ما يتشاكل مع دور الصّورة في إبلاغ المعنى للمتعلّم في الجيل الثّاني.

يقول ابن خلدون (ت.808هـ): "... أرشدنا الله وإياك أن نشاهد هذا العالم، بما فيه من المخلوقات كلّها على هيئة من التّرتيب والأحكام وربط الأسباب بالمسببات... وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني وأوّلاً عالم العناصر المشاهدة"[2]، ويعتاب ابن خلدون على كثير من المعلّمين الذين يجهلون طرق التّعلم وإفادته، فيقتنعون بالإستماع إلى الغريب بين الأخبار، دون تحقيق ذلك بالمشاهدة والمعاينة"... فإنّ قبول العلم والإستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً، ويكون المتعلّم أوّل الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة، إلاّ في الأقلّ، وعلى سبيل التّقريب والإجمال، وبالأمثال الحسيّة..."[3].وبيان ذلك يتجلى في أنّ المتعلّم ينتقل ذهنياً من الحروف الخطيّة الماثلة أمامه في الكتاب إلى الكلمات اللّفظية في الخيال، ومن الكلمات اللّفظية إلى المعاني التي في النّفس، فهو ينتقل من دليل إلى دليل، فتحصل له الملكات وتنمو، ويتعلّم الانتقال من الأدلّة إلى المدلولات، وهو نعم النّظر العقلي.

يقول عبد القاهر الجرجاني (ت.471هـ) "قد بان واتّضح لمن نظر، نظر المتثبّت الحصيف الرّاغب في اقتداح زناد العقل، والإزدياد من الفضل، ومن شأنه التّوق إلى أن يعرف الأشياء على حقائقها، ويربأ بنفسه عن مرتبة المقلّد الذي يجري مع الظاهر... وأوّل الخاطر"[4].ولقد أومأ عبد القاهر الجرجاني في القرن الرّابع الهجري إلى التّعمق في العلامات اللّغوية، والتّغلغل في أسرارها ودقائقها، وهذا ما تتطلّبه الصّورة في الكتاب المدرسي، والوقوف على ما وراء الأشكال والخطوط والألوان، واقتطاف المعاني والدّلالات والقيم القابعة وراء جدار الصوّر.

ويؤكد على أنّ "العلم هو صورة المعلوم مأخوذة عنه بواسطة الإدراك كما تؤخذ الصّورة الشمسية، والآلية المعروفة، فإن كان المعنى المنتزع من الجزئيات قانونا كليّاً يرشد إليها، فهو القاعدة، وإن كان صورة تناسبها وتقربها من الفهم، فهو المثل... والتّعليم النّافع إنّما يكون بقرن الصوّر المفصّلة بالصوّر المجملة، إذ بالتفصيل تعرف المسائل، وبالإجمال تحفظ في العقل، وبهذه الطّريقة يجمع بين العلم والعمل الذي يثبت به العلم..."[5]. ومن ثمّة فسبيل الأنّساق البصرية، هو ذاته سبيل النّظم في تراكب كله وضمّ بعضها إلى بعض أي إتّساق صيغة الصّوتية والصّرفية والتّركيبية والدّلالية، وإنسجام معانيه وكذلك الصّورة لابّد أن تكون متّسقة البؤر والألوان، ومنسجمة الدّلالات والمعاني التي تؤديها. "واعلم أنّ من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته، أن لم يحتج واضعه إلى فكر ورويّة حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضمّ بعضه إلى بعض، سبيل من عمد إلى لآلٍ فخرّطها في سلكٍ.. وكما نضدّ أشياء بعضها على بعض... واعلم أنّ من الكلام ما أنت ترى المزيّة في نظمه والحسن، كالأجزاء من الصّبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض حتّى تكثر في العين..."[6].

1. ماهيّة الصّورة:

الصّورة في اللّغة مأخوذة من مادة (ص، و، ر) وهي تعني هيئة الفعل أو الأمر وصفته، والصّورة هي الشّكل، والجمع صُور و صِوَر، وقد تصورته فتصوّر، والتّصاوير: التّماثيل.

وعرفها ابن الأثير قائلا: "الصّورة ترى في لسان العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشّيء وهيئته، ويعرفها عبد الله العلايلي في معجمه "الصّحاح في اللّغة والعلوم"، بقوله "الصّورة جمع صور عند أرسطو، تقابل المادّة، وتقابل على ما به وجود الشّيء أو حقيقته أو كماله..."[7].

وفي المعجم الوسيط الصّورة هي الشّكال والتّمثال المجسّم، وفي التّنزيل العزيز "الذي خلقك فسوّاك فعدّلك في أيّ صورة ما شاء ركّبك"، والصّورة المسألة أو الأمر يقال: هذا الأمر على ثلاث صور، وصورة الشّيء ماهيته المجرّدة وخياله في الذّهن والعقل..."[8].

أمّا بالنّسبة لاصطلاح السيميوطيقي الحديث، فإنّ الصّورة تنضوي تحت نوع أعمّ يُطلق عليها مصطلح الأيقونة (Icone) هو يشمل العلامات التي تكون فيها العلاقة بين الدّال والمرجع قائمة على المشابهة والتّماثل.

إذن الصّورة هي ذلك الكلّ المكتمل المركب الذي يشمل الجوانب المكوّنة لشخصية المتعلّم، كالجانب الحسّي والعقلي والمعرفي والإبداعي والوجداني، وهي ليست إلاّ تعبيراً بصرياً وإبداعياً، يسلك سبيل التّخيّل وترجمة الأفكار بمعانٍ مستمدة من البيئة الثّقافية، فهي تجسّد المفهوم وتشخّص المعنى، وتجعل المحسوس أكثر حساسية.

يعرفها **عبد الله الغذامي** بقوله: "الصّورة ثقافة وفكر وإنتاج اقتصادي وتكنولوجي... وهي لغة عصرية يشترط فيها تطابق القول مع الفعل، وتمثّل الحقيقة التّكنولوجية..."[9].

نلفي الأيقونة في الكتاب المدرسي للتلاميذ الصغار علامة تكنولوجية، ومؤشر توضيحي، ومادة إنتاجية ومنطق مستقبلي، تحقّق الإفادة لدى المتعلّم.

إنّ ما يهمّنا في هذه الورقة البحثية هي أن نستبين أهمّية الصّورة في العملية التّعليميّة، وأن نستجلي دورها العلاماتي الكامن في تكوين شخصية المتعلّم الإبداعية.

"تعتبر **ماتز** (Christion Metz) الرّسالة البصرية مثل الكلمات وكلّ الأشياء الأخرى، لا يمكن أن تنفلت من تورطها في لعبة المعنى، فالصّورة علامة أيقونية، خطاب مشكّل كمتتالية غير قابلة للتقطيع، لأنها المتتالية التي تسعى إلى تحريك الدّواخل والإنفعالات للرّائي (القارئ)، وهذا ما يبرز جمالية المرئي الذي تتضافر عناصره من أجل تأكيد المكتوب"[10].

يتمكن المتعلّم عبر هذه اللّغة البصرية من توليد مجمل الدّلالات داخل الصّورة، لأنها لغة بالغة التّركيب، تعمل على نقل الأفكار من لغة إلى لغة أخرى، تحكي الفكرة عبر لغة الشّكل، اللّون، الخط، الظّل، الملامح، الإتّساق البصري...، لتضعها في سلم القراءة، وتنتهي بها إلى الفهم والإدراك بإعمال العقل ومهاراته، تستند هذه اللّغة على مكونين من أجل بناء النّصوص:

- البعد العلاماتي الأيقوني (الأجسام، الوجوه، الحيوانات).
- البعد العلاماتي (التّشكيلي: الخط، الأشكال، الألوان...).

"ويعد هذا المنجز من المنجزات النّوعية التي تقدّم تسهيلات لقراءة النصّ، مهما كان نوعه سيميائياً، لذلك إنّ قراءة الصّورة تشبه إلى حدٍّ بعيد ما يُثيره العنوان من تساؤلات في ذهن المتلقي..."[11].

2. جمالية الأشكال البصرية:

الوشيجة بين النصّ والصّورة هي تمام نفس العلاماتية التي عناها سوسير في تنبؤه بسيمياء النّص و"تنطوي الثّقافة البصرية لدى المتلقي على تقدير جملة المهارات الإدراكية لضرورة ملحّة من ضرورات تعبئة القدرة على رؤية الأشكال البصرية في مهامها الطبيعي لدى المتمتّعين بنعمة البصر"[12]، وتنبع قدرة المتعلّم وإستجابته للبنية البصرية من خلال إستعداده المعقول بالتّعلم والبحث عن المعنى المعبّر عنه في الأشكال البصرية، ناهيك عن حل الرّموز وترجمتها، ورؤيته لخصائص الأشياء الجديدة بالملاحظة، يقول ناثان بنوبلر في كتابه "حوار الرؤية في إطار التنظيم الجمالي": لدى المتلقي صعوبة تتحدى النّاظر لكي يشركه في التّقصي عن معنى يشعر أنّه موجود هناك في العمل. إنّ الحوار البصري يستدعي من المتعلّم وضع الحدود والمعايير اللاّزمة للنّصّ المرئي، ورسم الآليات التّأويلية، وترشيد الحوار لتأليب هذا الرائي على الأوجه المتعدّدة للصّورة.

3. الكتاب المدرسي:

إنّ الأيقونات الحاضرة في العملية التّعليميّة والمجسّدة في الكتاب المدرسي هي وسيلة من الوسائل التّعليميّة، والتي تعدّ "... جزءاً من تكنولوجيا التّعليم، وهي قديمة قدم الإنسان، وقد عرف الإنسان الوسائل التّعليميّة منذ أن خلقه الله وأنزله على هذه الأرض، إذ علّم الله ابن آدم ذلك الفنّ الذي وضّح له الكيفية التي يواري بها سوءة أخيه، وهو ما يعرف اليوم بالمحاكاة أو التّقليد المفيد، قال الله تعالى: ﴿**فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه**﴾ (المائدة، 31)[13].

لقد مرّت الوسائل التّعليميّة بمرحلة طويلة، تطوّرت خلالها من مرحلة إلى أخرى، حتّى وصلت إلى أرقى مراحلها التي نشهدها اليوم في بداية القرن الحادي والعشرين، في ظل إرتباطها بنظرية الإتّصال الحديثة، واعتمادها على منحى النُظم، حيث أصبحت تلك الوسائل حلقة في سلسلة متعدّدة الحلقات، وجزء أساسياً في منظومة متفاعلة لا تتطلب تكاملاً مع جميع عناصر الموقف التّعليمي "إنّ العملية التّعليميّة تستدعي تهيئة المواقف ومشاريع العمل، كما تستدعي العمل على تزويد الطالب بالمهارات العلمية والمهنية، والعمل على خلق الشّخصية المفكرة للتّعبير عن نفسها، وهذا ما تنتظره منّا الألفية القادمة، فيجب أن تحقّق المنظومة التّربوية ما تواجه به من إستراتيجيات الإدراك البعيدة، وخزن المعلومات، وهذا لن يكون إلاّ بالتّحوّل الذي يجب أن يحدث على مستوى فعالية المنظومة التّربوية"[14]، وذلك باستثمار كلّ الوسائل المتاحة لنجاعة العملية التّعليميّة التّعلّمية.

وهذا ما جعل التّفكير في إدخال الوسائل التّعليميّة الحديثة في المنظومة التّربوية، للتّجديد في مستوى المدرسة، وفي الوسائل التي تخرجها من كيانها وصرامتها، ومن هنا وقع التّفكير في إعتماد الوسائل التّعليميّة التي هي تلك المغنيات ووسائل الإتّصال التّربوي، لتحقيق تكنولوجيا التّعليم بين المدرِّس والمتمدرس، والإستفادة من المخترعات بغرض رفع المستوى و"تنقسم المعيّنات إلى عدّة أنواع... معيّنات بصرية ومعيّنات سمعية، ومعيّنات بصرية سمعية، إعتماد على الحاسّة أو الحواس التي تتوجّه إليها الرّسالة. والمعيّنات البصرية تضمّ الصّور الفوتوغرافية والصّور المتحرّكة الصّامتة، وصور الأفلام والشّرائح بأنواعها المختلفة، والرّسوم التّوضيحية والرّسوم البيانية، والرّسوم المتحركة والأشياء المبسّطة، والعيّنات والنّماذج والخرائط، والتّمثيلات... وإستخدام السّبورة"[15]و بالنّظر إلى المعيّنات في تدريس اللّغة العربية، بوصفها أدوات مساعدة وجزء من المنهج المراد تدريسه، ونستخدمها في جميع المراحل التّعليميّة، ولكنّها تكثر وتتعدّد في المرحلة الإبتدائية.

4. فوائد الوسائل التّعليميّة:

أجمعت أراء بعض الباحثين المهتمّين بالوسائل على اِستنتاج الفوائد الآتية:

1) "توفر الأساس المادي المحسوس للتّفكير الإدراكي، ومن ثمّ تقلّل من اِستجابات الطّلبة اللّفظية التي لا يفهمون معناها.
2) تشير إلى درجة كبيرة من اِهتمام الطّلاب.
3) تجعل خبرات الطّلاب باقية الأثر.
4) توفر خبرات واقعية تثير النّشاط الذّاتي للطّلاب.
5) تساعد على التّفكير المنسّق المستمر، وعلى الأخصّ الصّور المتحركة.
6) توفير خبرات متنوعة، يصعب الحصول عليها عن طريق أدوات، ووسائل أخرى، كما تعمل على زيادة التّعليم وفاعليته"[16].

إنّ ذلك النّوع من الصّور التي نجدها في الكتاب المدرسي، لها ميزة تربوية، حيث تربط موضوع الدّرس بالواقع الحسّي، فتعمل على تثبيته ودوام ذكره، وتستخدم كذلك في تسلسل أحداث القصّة من القصص.

لماذا ينضوي الكتاب المدرسي على كمّ كبير من الصّور ؟

لأنّ "الكتاب هو أهم وسيلة تعليمية في التّقنيات التّربوية، وهو الوسيلة المثلى التي يجب العناية بها، فهو مصدر أساسي للمعرفة... أو الإناء الذي يحوي المادّة التّعليميّة التي تعمل على تغيّر سلوك المتعلّم، وتمكن أهمّيته في أنّه يقدّم للمتعلّمين المواد الدّراسية بشكل بسيط ومنهج، أضف إلى ذلك أنّه تقدّم المعارف والمعلومات والخبرات لكل مُتعلّم في مستوى دراسي معيّن"[17].

ومن واجب معلم اللّغة العربية، أن يجعل الكتاب مادته الأولى في تقديم الدروس للمتعلمين لفائدته العظيمة، "إنّ مصدر لغة التّلميذ تمكن في المقام الأوّل في الكتاب المدرسي، ومن هنا توجب الاِهتمام به لأداء وظيفته المتمثلة في تبليغ المعرفة، ودعم المكتسبات وتقويمها، وأداة التّثقيف، وحصول الملكة اللّغوية"[18].

تعدّ الكتب المدرسية ترجمة للمقررات والمناهج، وتؤثر في عمل المعلّم والمتعلّم، لذلك ينبغي أن يُعتنى بتأليف هذه الكتب، لتتوفر على التّتابع والاستمرار والتكامل، وتكون ملائمة لمستويات المتعلّمين، ومُحقّقة للرّبط الوثيق بين المدرسة والمجتمع، آخذة بعين الاِعتبار جميع الأهداف التّربوية "والكتاب المدرسي بخّاصة كتاب اللّغة العربية، من أكثر الوسائل التّعليميّة فاعلية وكفاءة في مساعدة المدرس والطّالب في أداء مهمتها في المدرسة، ولذلك يمثل الكتاب عنصراً لا غنى عنه في أيّ برنامج تربوي، فهو دليل أساسي لمحتوى البرنامج ولطرق التّدريس ولعمليات التّقويم، وهو موجه نحو أهداف التّربية ويرسم الحدود العامّة والمفاهيم والقيم التي يحتاج إليها الطلبة والمجتمع معاً في أيّة مرحلة من مراحل تطوّره"[19].

فهو الصّورة التّنفيذية للمنهج الذي يعمل على إخراج المادّة اللغوية في أنماط من الموضوعات والبناء والصّياغة، وهو الحامل الرئيس للأهداف الدّينية والوطنية والاجتماعية والسلوكية والعصرية..."تنبع أهمية الوسيلة التّعليميّة، وتتحدّد الأغراض التي تؤديها في التعلّم من طبيعة الأهداف التي تختار والوسيلة لتحقيقها، ومن المادّة التّعليميّة التي يراد للطّلاب تعلّمها أولاً، ثمّ من مستويات نمو المتعلمين الإدراكية..."[20] ومن ثمّة فإنّ الكتاب المدرسي يُستخدم بغية تنمية اِستعدادات الأطفال التّربوية والعقلية والعاطفية والجسمية.

5. البعد العلاماتي للصّورة في الكتاب المدرسي:

إنّنا لا ننكر أنّنا نعيش في عصر ثقافة ما بعد المكتوب، أي عصر الصّورة والرّسالة البصرية، وسُنن الإدراك "... وهي معطى حسّي للعنصر البصري، حسب (Fulchignoné)، أي إدراكاً مباشراً للعالم الخارجي في مظهره المضيء، تحمل هذه الصّورة رسالتين الأولى تقريرية، والثّانية تضمينية ومُستمدة من الأولى"[21].

بتعميق النّظر في خصوصية الرّسالة البصرية، نجدها عبارة عن علامة (Signe) سيميائية تشتغل وفق تنظيم خاص ومُحدّد، من هنا يمكننا إعتبار الصّورة في الكتاب المعبّرة عن النّصّ، والمترجمة لأفكاره لغة، ويتضح ذلك جليّاً في العلاقة التي تربط الرّسالة البصريّة باللّسان الذي نستعمله في قراءتها، فقد استطاعت الدّراسات السّيميائية أن تضع حدود فاصلة بين دوال الأيقونة (Les signifiants) ومدلولاتها (Les signifies)، وتنظيم قواعدها الإستدلالية والتّأليفية، وفق أوليات (Mécanisme) بنائية، يتمّ تحقيق طرف التّدليل فيها (La signifiance)."... فإنّ بيرس يضع العلامة أساساً للعلم بأسره، إذ العلامة هي نقطة الإنطلاق التي ينبغي عليها تعريف كلّ عنصر على حدة... الإنسان فيما يراه بيرس في كلّيته علامة، وفكره أيضاً علامة، وكذلك مشاعره، وكان يرمي بيرس إلى تأسيس نظرية في العلامة، فضلاً عن العلامات اللّغوية، جميع أنواع العلامات، على أن تتحوّل اللّغة إلى إقليم داخل إمبراطوريات العلامات هذه..."[22].

كان بيرس (Peirc) يهدف إلى الحفاظ على نموذج النّسق اللّغوي جنباً إلى جنب للنّسق غير اللّغوي، وحسبنا أن نقول: "إنّ نظام العلامات اللّسانية يمارس قوّة حضورية في تفسير أنظمة العلامات الأخرى وتأويلها، باعتبار أنّ العلامات ليست بالضّرورة لسانية فحسب، بل مجال العلامات فضاء مفتوح أكثر ممّا نتصوّر، فالعلم والصّليب المعكوف، وبعض الحركات والإيماءات وإشارات المرور هذه، كلّها تشكل أنواعاً من العلامات"[23].

العلامة الأيقونية (Icon)، هي علامة إستبدالية تنوب عن موضوعها بحكم علاقة المشابهة كالصّورة الفوتوغرافية والرّسومات.

يرى إيكو(Eco) أنّ التّشابه ليس بعلّة مُطلقة، ولكنّه يقوم أيضاً على علاقة عرفية ثقافية، فالتّشابه الذي نجده بين الصّورة والشّيء الذي يمثّله هو ناتج عن ممارسة ثقافية... وقد آزره في ذلك لوتمان(Louri Lotman) بقوله: "إنّ العلامة الأيقونة تأخذ هي الأخرى صفة العلامات الاصطلاحية(...)، إذ تقوم بين الحجم المصوّر والصّورة التي تمثله مجموعة من قواعد التّكافؤ الاصطلاحي(...)، إنّ مجالات العلامات الأيقونية والعلامات الاصطلاحية لا تتعايش فقط، وببساطة جنباً إلى جنب، وإنّما هي في تفاعل مستمر ومتبادل، تتداخل وتتنافر باستمرار..."[24].

ولقد وجدنا للألوان الباهية والرّسومات المعبّرة، والرّموز الجليّة، والخطوط المستوية، والصّور الآسرة للعيون، سمات سيميائية محضة يبغي من ورائها المربّون تحقيق الكامن لدى المتعلّم، وتوصيل المعنى الطبيعي إلى نفسه، وترسيخ القيم العليا في ذهنه، إنّ هذه البيداغوجيا تعمل على تمكين المتعلّم من إكتساب المعرفة والكفاءة، والشخصية المتوازنة الفاعلة المنفعلة، للوصول به إلى نموذج المتعلّم الإيجابي الذي يبني ذاته ويؤسّس لها موقعاً في المجتمع والعالم.

هذا التّصوّر المنشود الحافل بالأنساق البصرية التي ألفيناها لبنات متينة، تساهم في بناء الكفاءات على أساس مبدأ الحاجة والحرية، من منطلق أن تعليمية اللّغة العربية في المرحلة الإبتدائية تتلاقح مع البيداغوجيا ذات النّسق المفتوح، والتي تتطلب تخطيطات ديداكتيكية مرنة، تقوم على ما يعرف بالوضعيات الخصبة الفاعلة لإنتاج تعلّمات حقيقية، وذلك بدروس تنشطها علامات غير لسانية متنوعة، إنّ هذا ما يسمى بالنّقلة العلمية، وهو التّجسيد الواقعي للمعرفة المكتسبة والمهارات المبنية بالتّكوين والخبرات

المترسّخة عبر التّجارب، والوضعيات والمواقف المتباينة أو المتشابهة. "شهدت الدّراسة الأيقونية تطوّراً ملحوظاً بعدما وضع بورس لبناتها الأولى، وأسهم في دعمها علم النّفس التّكويني ذي الطّابع المعرفي على يد جون بياجي، دون أن ننسى دور المدرسة الجشطالتية في حرصها على الصّورة، ولكنّ تطوّر علم الأعصاب الفيزيولوجي والعلوم المعرفية، والذّكاء الاصطناعي، وضع بين يدي السّيميائيين آليات صلبة لفحص السّيميوزيس والانفتاح النّسقي..."[25].

وقد أضحى هذا التّيار في العصر الحالي يُعرف بالسّيميائيات البصرية أو سيميائيات الصّورة. و قد تزخرف كتابنا في المرحلة الإبتدائية بصورة مزيّنة، بادية لعيان المتعلّمين، فمثلا الصّورة المتصدّرة لكتاب السّنة الأولى إبتدائي في المقطع التّعليمي الأوّل المعنون بـ"عائلتي"، عبّرت تعبيراً حقيقياً عن الألفة الأسرية التي تجمع بين أفراد العائلة "أحمد يرحب بكم"، نسق مرئي أحضر نسقاً عائلياً، وما أحوجنا إلى نسق الأسرة السّعيدة الصّالحة الأفراد.

إعتمدت هذه المرحلة من مرحلة الجيل الثّاني على وسائل تعليمية ترتكز على الحواس، ولعلّ أوّل إسم أطلق عليها، هو الرّسائل البصرية (Visuel aids)، مثل كتابنا الذي يخاطب حاسة البصر، فسمّاه البعض بـ"التّعليم البصري (Visuel instruction)، فهو يعتمد أكثر على حاسة البصر.

6. وظائف الصّورة الدّعامة نحو سيميائيات إثنو– ثقافية:

إنطلاقاً من تحليل دور هذه الصور ضمن إطار تعليمية الألسن تحدّد وظائفها كما يلي:

1) الوظيفة النّفسية للتّحفيز: فالتّحفيز على اللّم الأسري مهم جداً بالنسبة للمتعلّم.
2) الوظيفة التّوضيحية: تعطيه هذه الصّورة نظرة شاملة كلّية عن النّصّ المرجع.
3) الوظيفة التّحريضية: توصف هذه الوظيفة بأنها الأكثر إستهدافاً من قبل واضع الصّورة التّعليميّة الألسن، إذ تقوم الصّورة على استشارة الحسّ التّعبيري عند التّلميذ.
4) الوظيفة البين سيميائية للّغة: تؤدي دور العابر للّغات، كونها قارئه على ربط النّسق اللّساني للّغة الأمّ، والنّسق اللّساني المستهدف من وراء العملية التّعليميّة.

"إنّ هذا النّوع من الحجب البصري، والاقتصاد الأيقوني في كمّ التّفاصيل البصرية لصورة المدرسة، يُسهم بدوره في إذكاء العنصر التّحفيزي المشوّق للمستكشف البصري للفضاء"[26].

وهنا تؤدي التّخريجات الوصفية أو السردية في مخيّلة الطّفل الواسع إلى التّخييل، بافتراض وقائع بصرية أخرى، مرئية وغير مرئية، وذلك راجع إلى الاستدلالات الموسوعية للعلامة الأيقونية. فسكونية هذه الصّورة تتضمن تخييلاً بالحركة ضمن ما يتحرّك في ذهن المتعلّم من الالتقاط البصري.

يمتلك الطّفل مجموعة من المقدرات العقلية التي تمكنه من فهم الصّورة وإدراكها، فهو "يرى أحياناً ما لا يراه غيره، يرى بعينه الخاصّة، فيضيف ما يضيف ممّا يعبر عن رؤيته الدّاخلية، ولعلّه أيضاً يسجل صورة الإنسان لا كما تسجل الآلة، بل يراه في نشاطه وتحركاته..."، ويقدر على تركيب مواقع الصّورة وإدراك الحجم النّسبي لها، وإدراك التّناسب الدّاخلي[27]، وإدراك أبعاد التّجسيم والإتّساق البصري الحركي– وتوجيه الخطوط – والإيماء والتّعبير– والاستكمال– وهي تقع المقدرات العقلية في منزلات

متسلسلة، فتكون الواحدة منها قاعدة لما يليها، فينطلق من المعرفة/السّمة، مثل السّمة الحاضرة عندها في هذه الصّورة وهي صورة لأسرة مجتمعة، حتى يتوصّل إلى القراءة والابتكار في هذه الأيقونة والوعي بالكينونة.

لقد أوجدت الدّراسات والأبحاث أنّ مقدار ما نتعلّمه بواسطة حاسّة البصر يتراوح من 73 إلى 83%.

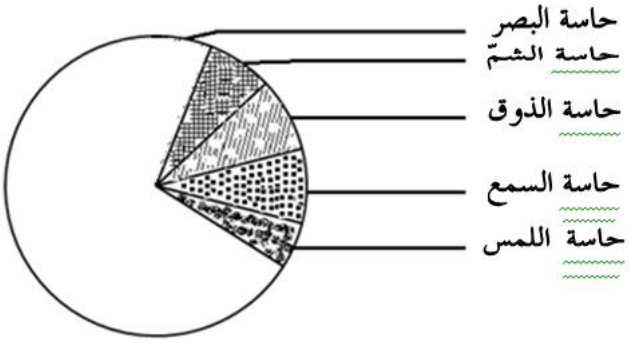

7. دور المعلّم:

يلعب المعلّم دوراً رئيساً في نجاح الدّرس لكلّ المقاييس، من خلال "إعداد كافة الوسائل التّعليميّة المناسبة اللاّزمة لإدارة الحصّة، وهذه الوسائل يراعى فيها خصائص مخروط الخبرة، فهي على نوعين: وسائل القاعدة، و وسائل القمة..." ويقصد بالأولى المواقف الحيوية التي تخاطب التّفكير الحسّي لدى الأطفال، وإمّا الثّانية فهي الرّموز اللّغوية منطوقة كانت أم مكتوبة في بطاقات ولوحات جمل.

والهدف الأساس هنا هو اِستخدام القاعدة بالتّدرج حتى نصل إلى القمّة، فلابدّ للمعلّم من أن يعدّ ترجمة لغوية لكلّ موقف سيُدار في الحصّة، في صورة لوحات جمل جزئية، وبطاقات كلمات منفصلة، ومن هنا يتعوّد التّلميذ على المؤازرة بين الصّوت والموقف والصّورة، والشّكل واللّون.

من خلال هذه الصّورة المبسوطة في الكتاب المدرسي، يتعامل مع حواسه صوتاً وشكلاً وحركةً، وسماعاً وذوقاً وشمًّا، لتكوين معانٍ وصور ذهنية، فيستقلّ لغوياً، ويعبّر قولاً ثم كتابةً.

يتعلّم الطّفل التّعريف بنفسه ابتداء من اِسمه حتى أفراد عائلته، فالمهمّ انّه تعلّم توعيته بذاته وبزملائه، وبالصّف وبالعدد، وممارسة القصّ وفحص الصّور بصرياً والتّعبير عنها حديثاً.

"المعرفة هي تكوين طرائق وأساليب، وليست اختزان معلومات، فالمتعلّم يزداد تعلّماً...، والمعلّم هو صانع تقدّمه" كما يقول **نورمان ماكنري**، وتعليم اللّغة العربية ليس معناه حشو ذاكرة المتعلّم بقواعد وضوابط ثابتة، وإنّما يجب أن نجعله يشارك وتفاعل إيجابياً مع المادّة التّعليميّة، وإكسابه المهارات المناسبة هو الهدف، ويُسهم بذلك في ترقية العملية التّعليميّة ونجاعتها.

لقد ولّى ذلك العهد الذي كان فيه التّمجيد للرّؤوس المملوءة بالمعارف، وأصبحت الغاية التّربوية الآن توخي العقول المنظمة وفق تعليم منسجم، قائم على تشغيل كافة قدرات المتعلّم وقيمه الوجدانية والسّلوكية، وأضحى الإتّصال التّربوي ينحو نحو المرسل أو القناة، أو المستقبل أو يتجه صوب العلاقات المتبادلة في إطار شبكة عامّة، أساس سنامها الصّورة، لتحقيق أهداف تربوية داخل بنية مؤسّسية وهي المدرسة الإبتدائية.

8. خاتمة:

إنّ التعليم بالصور هو من أحدث التقنيات التي توصّل إليها المربون في حقل التعليم، لما لها من فائدة وأثر على المتعلّم، وقد نبنين عن النتائج المتوصل إليها من هذه الدراسة وهي كالآتي:

- يتمتّع النسق البصري في الكتاب التعليمي في المرحلة الابتدائيّة بقوّة الحضور وقوّة الإدراك، وإحضار الغائب على مرأى من أعين المتعلّمين الحسّيين الذين يتعلّمون بالأيقونات والصوّر والرموز، فيألفونها قريبة للفهم وسهلة للإدراك.
- تُؤدي الأنساق البصريّة دوراً فعّالاً في نجاح العمليّة التعليميّة لمادة اللغة العربيّة.
- تُعتبر الأنساق البصريّة المساعد والمعين على تحقيق الغايّة، المتمثّلة في قابليّة المتعلّم من اكتساب الخبرات والمعارف والمهارات اللغويّة للوصول إلى أهدافه من حيث هو كائن متعلّم، يسعى نحو التحسّن والتطوّر.
- تساعد الأنساق البصريّة المتعلّم على اكتساب اللّغة، وتكون بمثابة المصاحب الأيقوني للنصّ المسموع والمقروء، وتُسهم بدور أساسيّ في إيصال المعنى إلى ذهن المتعلّم.

9. قائمة المراجع:

1. ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الله محمّد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط1، 2004.
2. أحمد حساني، أطروحة دكتوراه، العلامة في التراث اللساني العربي، 1998-1999.
3. أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة – المنطق السيميائي وجبر العلامات، دار العربية للعلوم، لبنان، منشورات الأخلاق الجزائر، المركز الثّقافي العربي بيروت، ط1، 2005.
4. بدرة كعسيس، سيميائية الصّورة في تعليم اللغة العربية، رسالة ماجستير، المشرف صلاح الدين زرال، جامعة فرحات عباس سطيف، الطّور الأول 2008-2009.
5. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998.
6. سعدون محمود الساموك، هدى علي جواد الشمري، مناهج اللغة العربية وطرق تدريسها، دار وائل للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 2005.
7. صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التّطبيقية، دار هومة، الجزائر، ط5، 2009.
8. عبد القادر شيباني، مقال: الأبعاد المعرفية للدعامة الأيقونية، بحث حول فاعلية الصورة في تعليميّة اللغة، جامعة معسكر.
9. عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، تعليق محمود محمّد شاكر، دار مدني، جدّة.
10. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1.
11. عبد الله الغذامي، الثّقافة التّلفزيونية – سقوط النّخبة وبروز الشّعبي، المركز الثّقافي العربي، ط2، الدّار البيضاء، المغرب، 2005.
12. قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2004.
13. كمال حسن الدليمي، مقال قراءة في سيمياء الصّورة – قراءة في منجز الباحث ذياب شاهين، مجلة الحوار المتمدن، العدد 31، 2015.
14. محمّد اسماعيل صيني عمر الصّديق عبد الله، المعينات البصرية في تعليم اللغة، عمادة شؤون المكتبات السعودية، ط1، 1984.
15. محمّد محمود الحيلة، الوسائل التّعليميّة، دار الميسرة للنّشر والتّوزيع والطّباعة، ط1، 2000.
16. مصطفى هجرسي، تدريس اللغة العربية، المقال: وسائل تدريس اللغة العربية، مجلة المربي، العدد 19.
17. معاشو قدور، جماليات الفنون البصرية في السرد الجزائري المعاصر، رسالة ماجستير، المشرف محمّد بشير بويجرة، جامعة وهران 2005-2006.
18. نعيم عطية، ذكاء الأطفال من خلال الرّسوم، دار الطّليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1993.
19. نعيمة سعدية، سيمياء الصّورة، جامعة محمّد خيضر بسكرة، مقال، مجلة كلية الآداب، 2010.

الإحالات والهوامش:

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ص75.

[2] ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الله محمّد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط1، 2004، ص38.

[3] المصدر نفسه، ص458.

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، ص35.

[5] عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، تعليق محمود محمّد شاكر، دار مدني، جدّة، ص14.

[6] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص88.

[7] يُنظر: سيميائية الصّورة في تعليم اللغة العربية، بدرة كعسيس، رسالة ماجستير، المشرف صلاح الدين زرال، جامعة فرحات عباس سطيف، الطّور الأول 2008-2009، ص8،9.

[8] المصدر نفسه، ص55.

[9] يُنظر: الثّقافة التّلفزيونية – سقوط النّخبة وبروز الشّعبي، عبد الله الغذامي، المركز الثّقافي العربي، ط2، الدّار البيضاء، المغرب، 2005، ص79.

[10] يُنظر: سيمياء الصّورة، نعيمة سعدية، جامعة محمّد خيضر بسكرة، مقال، مجلة كلية الآداب، 2010، ص28.

[11] يُنظر: مقال قراءة في سيمياء الصّورة – قراءة في منجز الباحث ذياب شاهين، كمال حسن الدليمي، مجلة الحوار المتمدن، العدد 31، 2015، ص50.

[12] معاشو قدور، جماليات الفنون البصرية في السرد الجزائري المعاصر، رسالة ماجستير، المشرف محمّد بشير بويجرة، جامعة وهران 2005-2006، ص32.

[13] محمّد محمود الحيلة، الوسائل التّعليميّة، دار الميسرة للنّشر والتّوزيع والطّباعة، ط1، 2000، ص25.

[14] صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التّطبيقية، دار هومة، الجزائر، ط5، 2009، ص130.

[15] محمّد اسماعيل صيني عمر الصّديق عبد الله، المعينات البصرية في تعليم اللغة، عمادة شؤون المكتبات السعودية، ط1، 1984، ص4.

[16] المصدر نفسه، ص8.

[17] صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التّطبيقية، ص100.

[18] المصدر نفسه، ص111.

[19] سعدون محمود الساموك، هدى علي جواد الشمري، مناهج اللغة العربية وطرق تدريسها، دار وائل للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 2005، ص125.

[20] مجلة المربي، تدريس اللغة العربية، المقال: وسائل تدريس اللغة العربية، مصطفى هجرسي، العدد 19، ص68.

[21] يُنظر: سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، قدور عبد الله ثاني، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2004، ص21.

[22] يُنظر: السيميائيات الواصفة – المنطق السيميائي وجبر العلامات، أحمد يوسف، دار العربية للعلوم، لبنان، منشورات الأخلاق الجزائر، المركز الثّقافي العربي بيروت، ط1، 2005، ص21.

[23] أحمد حساني، أطروحة دكتوراه، العلامة في التراث اللساني العربي، 1998-1999، ص2.

[24] المصدر نفسه، ص35.

[25] يُنظر: السيميائيات الواصفة – المنطق السيميائي وجبر العلامات، أحمد يوسف، ص22.

[26] عبد القادر شيباني، مقال: الأبعاد المعرفية للدعامة الأيقونية، بحث حول فاعلية الصورة في تعليميّة اللغة، جامعة معسكر، ص4.

[27] نعيم عطية، ذكاء الأطفال من خلال الرّسوم، دار الطّليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص130.